

من يتحدّى سيبويه؟!

أ. فريدة بن فضة

جامعة تيزي وزو

تعد اللغة ركنا أساسا من أركان الأمن الثقافي والحضاري والفكري للأمة في حاضرها ومستقبلها، فهي القاعدة المتينة للسيادة الوطنية والقومية وهي ليست وسيلة للتبليغ والتواصل فحسب بل هي عنوان لهذه السيادة التي تحرص عليها كل دولة من دول العالم.

وإذا سلمنا بأن قضية اللغة العربية قضية استراتيجية تمس الأمن الثقافي والحضاري والفكري للأمة، فإنّ المسألة في عمقها وجوهرها، تتطلب يقظة أشمل وأعمق وحركة أكبر وأنشط، وعملا أكثر جدية وفعالية، من أجل أن تكون اللغة العربية هي اللغة التي يتعامل بها المواطن العربي مع التقنيات الحديثة بمختلف أنواعها، خصوصا وأن الحياة اليوم في حركة سريعة مع الزمن فهي لا تريد التوقف ولا ترضى بالتخلف، وهذا التطور السريع يضع اللغة العربية أمام تحد من الطراز الأول.

وعلى هذا الأساس أخذت أقلام الكتاب تنثر حبرها هنا وهناك محاولة بذلك تشخيص الوضع الراهن لهذه اللغة مما أدى ببعض الكتاب إلى وصم العربية بالتخلف والعجز والتقهر والحكم عليها بالصعوبة والتعقيد.

وفي هذا الصدد أفتح بين أيديكم كتابا يبدو من عنوانه مثيرا للغاية وهو: "التحيا للغة العربية: يسقط سيبويه" لمؤلفه شريف الشوباشي متبعة في دراسته وتحليله الخطوات الآتية:

أولا: تقديم الكتاب

ثانيا: تحليل مضمونه وأهم ما جاء فيه.

ثالثا: قراءة نقدية له.

أولا – تقديم الكتاب

الكتاب بعنوان "التحيا* اللغة العربية: يسقط سيبويه" لصاحبه شريف الشوباشي، طبع أربع مرات، وهذه هي الطبعة الثالثة الصادرة عن ديوان الصغير للطباعة والنشر 7-10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين مصر: 2004.

ينقسم عنوان الكتاب إلى شطرين. فالشطر الأول منه "التحيا للغة العربية" الملون باللون الأصفر والذي يحمل دلالة الغيرة لإيهامنا بأنه يغار على هذه اللغة الجيدة، ويتمنى حياتها ونموها وانتشارها ويخشى من موتها واندثارها، أمّا الشطر الثاني من العنوان "يسقط سيبويه" الملون بالأزرق والذي يحمل دلالات عدة فقد يرمز إلى التفتح وإلى السماء، وكذا البحر، وما هذا إلاّ دليل قاطع على شساعة قواعد اللغة العربية شساعة البحر. وهذا ما جعل شريف الشوباشي يصف تلك القواعد النحوية التي أسس بنيانها سيبويه (ت 180هـ) بالتعقيد، ويدعو على سيبويه ويتمنى له السقوط، مما قد يفهم منه أن الشوباشي يريد إسقاط العربية، بإسقاط سيبويه لكونه العماد الأول لوضع القواعد النحوية.

كما أدرج شريف الشوباشي في غلاف العنوان لوحة. هي عبارة عن مخطوطة من المخطوطات العربية والتي قصدها المؤلف قصداً، وكأنّه يعرّض بالحضارة العربية الإسلامية. المعتمدة على التراث والنص القديم. فحضارتنا حضارة نص على عكس الحضارات الأخرى الأوروبية التي تعتمد على المادة، فهي حضارة مادية محضة. وقد يرى بعض الكتاب أنّ هذا من الأسباب التي أدت إلى تخلف العرب، أو كأنه يقول: إنّ العالم اليوم في أوج الحضارة لذلك لا يمكننا أن نعتمد على المخطوط أو نستند إليه لمسايرة العصر، واللحاق بالركب الحضاري.

وخلف الكتاب أدرج المؤلف بعض كتبه التي نذكر منها: لن تسقط اوروشليم، الداء العربي، نهاية التفكير، هل فرنسا عنصرية؟

جاء الكتاب في 239 صفحة بخط واضح متوسط، مقسم إلى عشرة

فصول وهي:

برج بابل

هل هناك لغة عالمية؟

رسالة إلى حراس الضاد

هل العربية لغة مقدسة

المسيحيون والعربية

المتني يخاف من الإعراب

شيزوفرينيا لغوية

غاية اللغة

ضد تحنيط العربية

الاستثناء العرب

أضيفت هذه الفصول إلى مقدمتي الطبعة الثانية والثالثة. وكانت خاتمة الكتاب مجموعة من الآراء المثمنة له.

ثانيا - تحليل المضمون**

انطلاقاً من مطبوعة "المالك" التي تصدر سنوياً وتحمل عدة عناوين ومواضيع من بينها أهم اللغات المتداولة في العالم، يتبين أن العربية قد فقدت حقيقة مكانتها أو منزلتها التي كانت تحظى بها في بدء طفولتها وأيام شبابها.

وتشير صفحات المجلة إلى أنّ اللغة العربية هي أداة تفاهم بين الناس وليست أداة الدرس والعلم، وباختصار فإن المجلة تعتبر اللغة العربية من بين اللغات الميتة والتي لا يمكن النهوض بها¹.

أمام هذا الواقع المرّ يرد الشوباشي على هؤلاء الذين لم يعطوا للعربية حقها. ولهذا نجده يقدم وجهة نظر جديدة تعيد للعربية روحها وحيويتها، فاللغة اليوم لم تعد تفي بكل حاجات الإنسان. "واللغة الفصحى التي يرمز إليها أحياناً بلغة سيويه لم تكن في يوم من الأيام لغة تفاهم وتعامل يومي، اللهم إلا في فترة وجيزة جداً وفي رقعة جغرافية محدودة بالجزيرة العربية"².

أضف إلى هذا أننا نعيش في عصر العولمة. وأياً كان موقفنا منها فإن لها بالتأكيد آثاراً سلبية على الثقافات لاسيما اللغات.

والجديد أيضاً هو وسائل الإعلام الحديثة التي أثرت في اللغة المكتوبة، وأمام هذه التحديات الخطيرة تمر اللغة العربية بمفترق طرق حيوي فهي:

إما أن تجدد نفسها وبالتالي تتخلى عن أصالتها وتراثها.

وإما: تتوقع على نفسها فتواجه بالفعل خطر الزوال لحساب اللهجات كما حدث للغة اللاتينية في القرون الوسطى وهذا الاحتمال ليس بالبعيد حسب زعم الشوباشي³.

يرى الكاتب أنّ مشكلة اللغة العربية لا تكمن في الناطقين بها بقدر ما تكمن في اللغة نفسها، لأنها لم تطلها سنة التطوير. ويرجع المؤلف سبب عدم امتلاك العربي ناصية لغته إلى تعقيداتها المختلفة، وأن نبوغ تلاميذ العالم الغربي وتحلف طلاب العالم العربي الذي يرجع أساسا إلى اللغة العربية التي لا تتعد تعقيداتها المختلفة -على حد تعبيره- عن مرتبة اللوغارتمات المغلقة على عقول غير المختصين.

ويضيف الشوباشي أن اللغة العربية اليوم أصبحت قيدا يكبل العقل البشري ويغل طاقاتنا الخلاقة فهي تسهم، وللأسف، في حرماننا من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التي يفتحها العالم الحديث بكل الوسائل المواكبة للتطور العلمي الحضاري.

إن العربية هي الوحيدة في العالم اليوم التي لم تتغير قواعدها الأساسية منذ 1500 سنة، وقد يرى البعض في ذلك رسوخا واستمرارية ودليلا على رصانة اللغة، لكن الشوباشي يرى في ذلك جمودا وتحجرا ينعكس سلبا على العقل العربي وأن الجمود في اللغة يؤدي حتما إلى الجمود في العقل وتيبس في الذهن⁴.

إن اللغة الانجليزية شهدت تطورا مذهلا، حيث نجح الأمريكيون في غربة هذه اللغة وإزالة شوائبها، مما بوأها أن تحتل مرتبة الصدارة في العالم. أضف إلى ذلك سهولتها التي سهلت للعديد من الكتاب أمثال "همنجواي" و"جون شتاينبك" الإبداع في المجال الأدبي البليغ إذ لا صعوبة تذكر بين البلاغة وتعقيد اللغة وكثرة مترادفات⁵.

إن بساطة قواعد هذه اللغة دفعت أيضا شرائح واسعة من سكان العالم إلى تعلم هذه اللغة فهي لا تستغرق وقتا طويلا ولا جهدا كبيرا. فاللغة الانجليزية طيبة سهلة على عكس اللغات الأخرى الموسومة بالصعوبة والتعقيد كما هو الحال في العربية.

وفي هذا الصدد يرى الشوباشي أن لغتنا بحاجة إلى انتفاضة تحديثية عاجلة وإلا تعرضت لخطر التقوقع أو الاختفاء والضياع. ولن يفهمها آنذاك إلا العلماء المتخصصون، بل ولا يتعلمها الناس إلا لقراءة القرآن.

"إن من يرقب تطور اللغة عندنا يشعر أنها مهددة بالضياع لحساب اللهجات، كما أن هناك نفورا واضحا متزايدا لدى الشباب من تعلم قواعد اللغة المعقدة والتراكيب التي عفى عليها الزمان ولم تعد تفي بحاجات الإنسان الحديث في التعبير عن نفسه"⁶.

ويصرح الشوباشي بأن اللغة العربية التي أبدعت أعظم وأرقى ما كتب في تاريخ البشرية صارت اليوم عجوزا منحطة في حاجة إلى عمليات عاجلة لإحيائها، إذ لا يمكن للإنسان اليوم أن يفكر كالبدوي في القرن الخامس الميلادي والذي لا يعرف عن العالم شيئا.

ولأن اللغة هي مرآة أمينة لتطور العقل فإن عدم تطور قواعدها يحمل دلالات خطيرة "ولو التزمنا بكلام حراس الماضي، لظلت مجتمعاتنا العربية في حالة من التخلف المرعب، ولكانت حياتنا اليوم جحيما لا يطاق ويتعارض مع المبادئ الحقيقية لديننا الحنيف الذي يدعو إلى طلب العلم ولو في الصين"⁷.

فمن واجبنا إذن ألا نستمع إلى دعاوى حراس الماضي الباطلة ومحاولتهم تخويف كل من يطالب بالتغيير والتطور للحاق بما وصل إليه العالم

المتقدم، فاللغة كائن حي وبالتالي هي بحاجة إلى التجديد والتحديث. أما من يطالب بتحنيطها وعدم المساس بها فهو يطالب بموتها⁸.

لقد كان العرب يتلاعبون بالألفاظ ويبحثون عن الغريب في الشكل أكثر منه في الجوهر وقد بلغ استظهارهم لمهاراتهم واستعراضهم لعضلاتهم اللغوية إلى قراءة الجمل من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين دون تغيير في المعنى ونجد ذلك في رسائل القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني⁹.

إنّ العربية اليوم لا تلائم العصر ومقتضياته فهي عاجزة عن نقل المعلومات وتفسير حقائق العالم الذي نعيشه، وعلى هذا ظهرت اللهجات كبديل لصعوبة استخدام العربية في حيز التعامل اليومي، وصعوبتها قديمة قدم اللغة فمن ينكر أو يجادل قول المتنبي (بسيط) :

وكلمة في طريق خفت أعربها فيهدى لي قلم أقدر على اللحن¹⁰

والأمر لم يتوقف عند هذا الحد، لأنّ رفاعة الطهطاوي قد أدرك صعوبة اللغة العربية عندما بدأ يتعلم الفرنسية خلال بعثته حيث يقول :
"كان لسانهم من أشبع الألسن وأوسعها بالنسبة إلى كثرة الكلمات غير المترادفة وإلى خلوها من المحسنات البديعية الحالية منها¹¹.

إنّ العربية اليوم تعاني بما أسماه الشوباشي شيزوفرينيا اللغوية (الانفصام اللغوي) وهذه الظاهرة جعلت عقل العربي مرهقا وذهنه مشتتا، فنجد أحيانا يفكر بالفصحى وأحيانا أخرى بالعامية وهذا ما يزيد من بلبلة الذهن وتشتت الفكر، على عكس اللغات الأخرى إذ نجد الأمريكي مثلا يكتفي بلغة واحدة ليصل إلى ما يريد.

فحالة الانفصام اللغوي التي يعيشها العالم العربي هي ما يعوق تطور اللغة ويعرقل ازدهارها.

لقد أثبتت المفارقات بين اللّغات أن العربية معناها يفهم من شكلها ومن علامات إعرابها وهذا من بين معضلاتها، كما أن هناك كلمات تكتب بنفس الصيغة الشكلية يؤدي في كثير من الأحيان إلى اللبس والتأويل¹²، ومن بين المشكلات التي تنقّر دارس العربية أيضا جمع المؤنث السالم وتصريف الفعل الناتج عنه، فالجمع في اللّغات الأخرى واحد سواء كان مذكرا أم مؤنثا ولماذا لا يكون هذا في العربية ؟

كما أنّ الترادف والاشتراك اللفظي يعرقلان تطور اللّغة العربية، وما هو مطلوب من اللّغة اليوم هو التعبير المباشر وليس الفذلّة والاستعراض الغريب الذي لا يخدم اللّغة.

إنّ تخلف العالم العربي-حسب زعم الشوباشي- يرجع أساسا إلى الفكر العربي القبلي المتعصب وحضارتهم اليقينية، إذ يرون أن كل اللغات يمكنها أن تتطور إلا العربية بحكم أنّها لغة القرآن ولغة الكتاب المقدس.

وعلى هذا الأساس نجد الشوباشي يثور على هذه الأفكار المتحجرة إذ لا قداسة في اللّغة فتطوير اللّغة وتحديثها أمر لا بد منه كي نلحق بالركب العلمي الحضاري، ويدعو إلى ضرورة تطوير شامل للمنظومة العربية، فقد آن الأوان لإعادة النظر في مسلمات طالما آذتنا، وأوضاع ثقافية متحجرة هي السبب الحقيقي وراء تعطيل مسيرة التقدم في العالم العربي بأسره.

ثالثا- قراءة نقدية للكتاب

إن أكبر خطأ منهجي -في اعتقادي- وقع فيه شريف الشوباشي هو تحميل النحو العربي مسؤولية تردي مستوى الأداء اللغوي الذي نعاني منه، وكذا عدم مسايرة العربية لعصرها، ومن الظلم الفادح للنحو- مهما

كانت صعوبته- أن نحمله مسؤولية ضعفنا اللغوي لسبب بسيط وهو أنّ اللغة لا تُتَعَلَّم بالنحو وحده "فهو علم بكيفية ولا نفس الكيفية"¹³ على حد تعبير ابن خلدون (ت 808 هـ) فاللغة سماعية تقوم على محاكاة العبارات والنصوص السليمة الفصيحة، كما أنّها ممارسة وترويض اللسان على الأداء الجيد عن طريق الحفظ والاستظهار.

أضف إلى هذا أن علم النحو لم يَقم إلا بعد أن بدأت سلائق الناس تفسد أملا في وضع ضوابط وقوانين يحتكم إليها عند المنازعة في عبارة ما بغرض تصحيحها أو تخطئها.

إنّ النحو قانون كغيره من القوانين الجزائية التي لا تستطيع وحدها حماية المجتمع، ما لم يتوافق ذلك مع تربية أخلاقية واجتماعية، فالنحو ليس إلا وسيلة من وسائل عدة لتحسين الأداء اللغوي ويصرح بذلك الجاحظ فيقول: "أما النحو فلا تشعل قلبه (الصبي) إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن انشده وشيء إن وضعه وما زاد عن ذلك فهو مشغلة عما هو أولي"¹⁴.

إنّ الوقوف على القوانين أو القواعد النحوية لا يكفي في عملية تعليم اللغة وتعلمها، لأن العربية ليست نحوا وحده، وإنما هي جملة من المستويات المتلاحمة والمتكاملة عمودها الصوت، وذروتها البلاغة. فالنحو كاستعمال أولي قاعدي للغة العربية وحده لا يكفي للتمكن من ناصية اللغة، والوقوف عند هذا الحد يجعل من العملية التعليمية ناقصة. هذا ما نحصد مرارته اليوم حتى أصبح تحليل الخطاب العربي قائما على المقياس النحوي البحث، وكأن الذي يبرع في تحليل الجملة نحويا

هو الأفضح والأدري باللغة، وذلك غلط. وبعبارة أوضح إن منظومتنا التربوية علمتنا كيف نحلل عناصر الجملة ولم تعلمنا كيفية استعمالها. إن صعوبة النحو ظاهرة عالمية وليست خاصة بالعربية. وإذا قصدنا بتيسير النحو حسب ما يعتقد الشوباشي الاختصار في مجموعة من القواعد دون المس بالأصول، فلماذا لا تختصر الأزمنة المتعددة في اللغة الفرنسية، "فالنحو كأي علم ولا سيما العلوم البحتة له صعوباته وتعقيداته وليس مما يدرك للوهلة الأولى، فالرياضيات ليست سهلة ولا الفيزياء ولا غيرها فهل صعوبة الرياضيات مدعاة لمهاجمتها وقد قدمت للبشرية ما قدمت وهل صعوبة الفيزياء مدعاة لهجرها وقد أنعمت للبشرية بما لا يحصى من المنافع"¹⁵.

لم يفرق شريف الشوباشي بين النحو العلمي والنحو التعليمي. كتاب سيبويه نحو علمي. أما الكتب التي تلتها فتفسيرية، فشارحة له هي تعليمية. والنقص من قيمة الكتاب أمر جزافي تعسفي.

قيمة هذا الكتاب هي التي جعلت العلامة ابن خلدون يشيد به فيقول: "وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة... وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنهم"¹⁶.

إن التيسير إذن في القواعد لن يعلم اللّغة بقدر ما يهدمها ويضعف من قواها فلقد أجرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي موازنة بين علماء السلف وبين طلابه قبل خمسين (50) سنة من الآن، فوصف أهوال الرحلة لملاقاة العلماء والتزود بالعلم ثم خطب في طلابه الحاضرين معه قائلاً: "فتعالوا نقارن سيرتكم بسيرتهم وتحصيلهم ثم نتحاسب على النتيجة! كانوا يقيدون وأنتم لا تقيدون، وكانوا ينسخون الأصول بأيديهم ويضبطوها بالعرض والمقابلة حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وأنتم أراحتكم المطابع، ويسرت لكم الكتب، ورب تيسير جلب التعسير، فإن هذا التيسير رمى العقول بالكسل والأيدي بالشلل حتى لا تجري في إصلاح الأغلاط المتفشية في تلك الكتب. وكانوا يرجعون بالرواية الواسعة والمحفوظ الغزير، وينقلون الجديد من العلم، والطريف من الآراء والمفيد من الكتب من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق فانظروا بماذا ترجعون أنتم اليوم؟"¹⁷.

إن الأمر الذي يجب أن لا يغفل عنه هو "أن العربية الفصحى ذات واقع لغوي حديث هو استمرار لواقع لغوي سابق، مع وجود أوجه اختلاف بين كلا الواقعين شأن الكائن الحي المتطور يفيد من تقدم الزمن به ومن صلاته بالآخرين"¹⁸، إذ استطاعت العربية اليوم أن تستقطب معظم المصطلحات العلمية والتقنية، وبفضل هذه الطاقة اللغوية الكامنة فيها، وحربتها في التوليد والاشتقاق ويكفي أن خطها تم استيعابه بثلاث محاولات فقط من قبل الآلة الالكترونية مقارنة باللغات الأخرى وذلك على حد تعبير أحد خبراء الخط¹⁹.

يعتبر شريف الشوباشي الشكل أو العلامات الإعرابية من المعضلات الكبرى التي تعرقل تطور اللّغة، وهو اعتبار خاطئ ليس فيه شيء من اليقين،

لأن تلك العلامات أو الحركات الإعرابية هي التي تفصح عن المعاني وتكشفها وتعبر عن تغير الدلالات. ويقرر ابن يعيش (ت 643 هـ) هذا المعني موضحاً أن "الإعراب هو الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم، لتعاقب العوامل في أولها. ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيد عمرو" بالسكون من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول. ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب، ولم يوجد الاتساع بالتقدم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب"²⁰.

إن علامة الإعراب هو ما يكسب التركيب قيمة دلالية لا تتم إلا بوجودها. ويبين خليل عمايرة قيمة علامة الإعراب بقوله "إن الحركة الإعرابية شأنها شأن أي مقطع صوتي في الكلمة له قيمة وأثر في الإفصاح والإبانة عما في النفس من معنى، فإذا قال المتكلم مثلاً: الأسد بالضمة، فإن السامع يدرك أنه قد أراد نقل الخبر ليس غيره، ولكنه إذا قال "الأسد" بالفتحة فإن المعنى يتغير إلى معنى التحذير الذي هو في ذهن المتكلم ويريد أن يفصح عنه"²¹ وبذلك تكون علامة الإعراب عنصراً بنائياً يؤثر في التشكيل الدلالي ويؤسس على المعنى.

والجدير بالملاحظة أن نظام اللغة العربية كل متماسك يخضع علاوة على ذلك لمنطق لغوي، وعلامات الإعراب جزء هام من هذا النظام فلا يمكن بأي حال من الأحوال فصلها عنه.

وبهذا يلتقي ابن جني (ت 392 هـ) في تبين مرونة النظام اللغوي مع النظر اللساني الحديث. يقول فندرس "فترتيب اللغة العربية فيه مرونة من حيث الحرية في ترتيب الكلمات فتقول العربية (يضرب زيد عمراً) أو (يضرب عمراً زيد) أو (عمراً يضرب زيد) دون أن يؤدي ذلك في معرفة الفاعل والفعل والمفعول"²² ويتأثر النظام اللغوي بوجود علامة الإعراب التي تسمح لتحولاته

الكبرى أن تحدث، دون لبس في درجات الدلالة ويستثمر المتكلم هذه العلامة في تعيين مستويات الدلالة ضمن قواعد تنتج حرية التحول داخل الدائرة النحوية. فدلالة التركيب تقام على مجموعة القرائن التي تنتظمه ضمن سياق مرن يستوعب التحولات ويعين ما يترتب عليها من تغيير على مستوى الدلالة الكلية.

ويقال إنّ العرب سموا كذلك لكثرة تحركاتهم وتنقلاتهم ومنها جاءت العربية والإعراب، فبمجرد أن أحرك وأعرب الكلمات على مستواها الشكلي أحرك في الوقت نفسه الدلالات على مستواها التركيبي.

يعتبر الشوباشي الترادف من سليات اللغة التي تجعلها غير متطورة، لكن الذي أثبتته الدراسات الحديثة هو عكس ذلك، لأن ذهن الإنسان دائما ميل لاستحضار الأشياء المتشابهة في ذهنه ليسد تلك الثغرات والعثرات التي يتلقاها في طريقه، فسوسير أكد ذلك في ثنائية التركيب والاستبدال، إذ تتميز الأولى بالصفة الغيائية التي تحدث على مستوى الذهن وهنا يستحضر الإنسان تلك الأشياء المشابهة ومثال ذلك (Apprentissage, Enseignement).

وتتميز الثانية بالصفة الحضورية، وفي هذه الحالة يتم استحضار كلمة واحدة من تلك الكلمات أو المفردات المتشابهة لربطها في تركيب معين أو إدراجها ضمن سياق ما.

ولا أنسى أيضا أن الترادف يعد ثروة لغوية هامة فلا يمكننا أن ننكره أو نستأصله من الوجود اللغوي.

لقد هاجم الشوباشي القدماء بتلاعبهم بالألفاظ التي لا طائل من ورائها سوى الفذلّة والاستعراض الغريب، وهذا ليس صحيحا، وإلا فكيف نفسر تلك الأبيات الشعرية التي إذا قرأت من اليمين إلى اليسار فهي مدح، أما إذا

قرأت من اليسار إلى اليمين فهجاء! فأكيد أن المعنى هنا مقصود ولكم أن تحكموا على ذلك من خلال هذا الشاهد:

كرما ،قدير، مسند	باهي المراحم، لا بس
غنم لعمرك مرفد ²³	ياب لكل مؤمل
	وبقراءتها عكسا:
كسب المحارم لا يهاب	دنس، مريد، قامر
نغل مؤمل كل باب	دفر، مكر معلم

فلنتأمل في فحوى هذه الأبيات يستشف المعاني الخفية من ورائها والمعبرة من خلال ألفاظها عن وسط يعرف بالخارج عن نطاق اللغة. يقول رولان بارت «Roland Barthes» إن الخطاب اللغوي لعب، وبعبارة أخرى إن اللغة في حد ذاتها لعب، كما أن ظاهرة التلاعب بالألفاظ ليست مقتصرة على اللغة العربية بل نجدها في اللغات الأوروبية كالفرنسية مثلا حيث نجد الشاعر الفرنسي "Rimbaud Arthur" كثيرا ما يتلاعب بالألفاظ في شعره، ولم يمنع النقد من اعتبار ذلك من أعلى مراتب الكلام.

إلى جانب هذا نجد ظاهرة تدعى بالفرنسية «Pelindrome»، تقرأ فيها الكلمات والتراكيب يمينا ويسارا، ويسارا ويمينا دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير في المعنى. ومثال ذلك كلمة «Ressasser».

فبدل أن نطلق أحكاما جزافية وتعسفية على اللغة العربية لماذا لا نرجع إلى خصائص اللغات واكتشاف أوجه التشابه والاختلاف بين اللغات واستخلاص ما هو جوهري وما هو ثانوي.

ومما لا جدال فيه أن اللغة العربية تحتل حتى الآن مكانة مرموقة بين اللغات الأخرى باعتبارها أضخم هذه اللغات ثروة وأدقها أصواتا وأغناها في المقاطع والحروف والتعبيرات.

وصفوة القول أنّ اللغة ليست كيانا منفصلا ينمو وحده نموا ذاتيا ويحمل مسؤولية نفسه بنفسه ولكنها ظاهرة اجتماعية ترتبط بالإنسان وتتفاعل مع كل مظاهر حياته، فالعربية لا تحتاج إلى أن نمدحها ونبالغ في إطرائها، ولكنها ظاهرة ترقى بجهود أبنائها في العلم والحضارة والإنتاج، فقيمة اللغة تستمد في المقام الأول من قيمة أبنائها فهل نصل إلى هذا الوعي اللغوي من المعاصرة ونحن في القرن الواحد والعشرين؟ هذه هي القضية اللغوية وذلك هو التحدي الحضاري.

الهوامش

* تحيا: من حيي يحيا حياة وهو فعل معتل الأخير، وعند إدخال لام الأمر فإنه يجزم بحذف حرف العلة (لتحي)، أما ورود هذا اللحن فإننا نجهل أسبابه؟

** سأكتفي في تحليل محتويات هذا الكتاب بالإشارة إلى أهم الأفكار التي وردت في كل فصل، منه دون ذكر عناوين الفصول.

1. شريف الشوباشي، "لتحيا اللّغة العربية: يسقط سيويه"، ط3. مصر: 2004، ديوان الصغير عربية للطباعة والنشر شارع السلام أرض اللواء المهندسين، ص7 (بتصرف).
2. المرجع نفسه، ص9.
3. المرجع نفسه، ص 11 (بتصرف).
4. المرجع نفسه، ص13(بتصرف).
5. المرجع نفسه، ص13(بتصرف).
6. المرجع نفسه، ص 60.
7. المرجع نفسه، ص 67-71 (بتصرف).
8. المرجع نفسه ، ص80.
9. المرجع نفسه، ص 98 (بتصرف).
10. المرجع نفسه، ص138.
11. المرجع نفسه، ص 202.
12. شريف الشوباشي، "لتحيا اللّغة العربية: يسقط سيويه"، ص 202.
13. ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، "المقدمة"، ط3. بيروت : 1967، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانية للطباعة والنشر ، المجلد1، ص 1041.
14. عن: ممدوح محمد خسارة "مبادئ عامة في تيسير النحو" مجلة اللسانيات، الجزائر: 2003، العدد: 8، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللّغة العربية، ص 15.

15. المرجع نفسه، ص 14-15.
16. ابن خلدون، المقدمة، ص 1083.
17. محمد البشر الإبراهيمي، "عيون البصائر"، د.ت ، الجزائر: د.ت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج 2، ص 217.
18. هنري فليش اليسوعي، تح: عبد الصبور شاهين، د.ت "العربية الفصحى نحو بناء لغوى جديد"، بيروت: 1966، المكتبة الكاثوليكية، ص10.
19. ينظر: أحمد بن نعمان، "التعريب بين المبدأ والتطبيق"، ط 2. الجزائر: 1998، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 125 (بتصرف).
20. ابن يعيش، "شرح المفصل للزمخشري"، ط 1. بيروت: ، دار الكتب العلمية، ج 1، ص192.
21. عبد الله عنبر "علامة الإعراب مقارنة بنائية بين تحولات المعنى وتشكيل النص"، مجلة الدراسات، الأردن: 1998، العدد: 1، المجلد 25، عمادة البحث العلمي، ص 43.
22. المرجع نفسه، ص 41-42.
23. رفايل نخلة اليسوعي، "غرائب اللغة العربية"، ط 2. بيروت، لبنان: 1960، المطبعة الكاثوليكية، ص 113-114.

بيضاء